الفصل الثانى

النبوءات الصهيونية

نبوءات أم أكاذيب

حينما يدرك الإنسان الواقع فهو لا يدركه بشكل مباشر وإنما من خلال إدراكية تتشكل من خلال الذكريات والعقائد والرؤى والأساطير والأحلام، العقل ليس صفحة بيضاء ترتسم عليها معطيات الواقع المادية كما يدّعى البعض، فهو يتسم بأنه توليدى مبدع، لا يدرك بشكل متلقٍّ، وإنما يعيد صياغة الواقع أثناء إدراكه.

وهذه الحقيقة لها جوانبها المضيئة وجوانبها المظلمة، فالجانب المضيء هو أن عقل الإنسان مبدع قادر على تجاوز واقعة المادى وقادر على إعادة صياغته فى وجدانه، ثم يحاول بعد ذلك إعادة صياغته فى الواقع. كما أن العقل الإيجابى التوليدى لا يدرك السطح وحسب وما هو قائم، وإنما بوسعه أن يدرك الباطن وما هو كامن، وهو لا يدرك الواقع كتفاصيل متناثرة لا يربطها رابط، وإنما يحاول أن يراها داخل نمط متكرر باعتبارها كلاً متكاملاً.

أما الجانب المظلم للعقل التوليدى، فهو أن الإنسان المنهزم، المنكسر، لا يدرك الواقع إلا من خلال هزيمته وانكساره، ولا يرى أبدًا بشائر النصر الكامنة، فخريطة عقله الإدراكية تحتوى على الهزيمة. وقد حدث شيء من هذا القبيل للعقل العربى فى علاقته بالصهيونية، إذ ألقى فى روعنا من خلال كتابات بعض «الدارسين الموضوعيين» أن عدونا لا يُقهر وأنا علينا التفاهم معه، فمحاولة هزيمته أمر عبثى. وفى إحدى محاضراتى، التى حاولت أن أفتح بها كوات من النور أمام الجمهور، حتى يمكنهم استئناف الجهاد وعدم الاستسلام للهزيمة، قام ثلاثة من دعاة التطبيع وابتسموا فى

ثقة بالغة وقالوا: «هذا هو خطاب عام ١٩٤٨»، «أنت لا تختلف عمن ينشدون «أمجاد يا عرب أمجاد» أو «خلى السيف يجول». فضحكت وأجبت أننى لم أقل شيئًا وإنما ذكرت بعض الحقائق التى يهملها دعاة الهزيمة والتطبيع، ثم أضفت: «وإذا كانت هذه الحقائق قد ولدت بعض الأمل، فأنا أعتذر عن ذلك، لأن هذا لم يكن قصدى».

ومن الموضوعات الأثيرة لدى الخبراء من دعاة التطبيع والهزيمة أنهم يشيرون إلى نبوءة هرتزل أن الدولة الصهيونية ستتحقق بعد خمسين عامًا، ثم يهزون رأسهم فى حكمة بالغة ويقولون: إنها قد تحققت بالفعل فى ذلك التاريخ، ثم يشفعون ذلك بالإشارة الحتمية إلى دقة التخطيط الصهيونى ومقدرات الصهاينة العجائبية. وهم عادةً ما يقولون إن الرؤية الصهيونية مبنية على تحليل موضوعى علمى دقيق صلب للواقع، وبالتالى فالنبوءة الصهيونية هى نبوءات علماء دارسين للواقع، عارفين به. بل إن بعض العرب يعتقد أن كل النبوءات الصهيونية بخصوص الشرق الأوسط تحققت، أو على الأقل آخذة فى التحقق.

ولكن لعل كثيرًا ممن يُقال لهم بالموضوعيين هم فى واقع الأمر مهزومون مغرمون بجمع المعلومات، والنبوءات التى تبين مدى قوة العدو وبطشه ودقته وسيطرته وتحكمه، ولذا نجدهم يرصدون نوعًا واحدًا من القرائن، دون غيره - أى إنهم ليسوا موضوعيين بما فيه الكفاية، ولذا فهم لا يذكرون النبوءات الصهيونية الكثيرة التى لم تتحقق. فعلى سبيل المثال، ماذا عن نبوءة هرتزل بأن «ألمانيا العظيمة القوية» هى التى ستقوم برعاية المشروع الصهيونى وحماية اليهود «ووضعهم تحت جناحيها» كما قال بالحرف الواحد فى يومياته؟ وكلنا يعرف أن ألمانيا العظيمة هذه وضعتهم فى أفران الغاز وفتكت بهم وبغيرهم، بعد مرور حوالى ثلاثين عامًا من نبوءته لا أكثر ولا أقل!

وماذا عن نبوءة بن جوريون الذى قال: «إن عقب أخيل [أى نقطة الضعف] فى الائتلاف العربى هو سيادة المسلمين فى لبنان، وهى سيادة زائفة يمكن بسهولة قهرها. ويجب قيام دولة مسيحية هناك، بحيث تكون حدودها الجنوبية على نهر الليطانى، وسنكون على الاستعداد لتوقيع معاهدة مع هذه الدولة. وبعد أن نكسر الفيلق العربى ونضرب عمّان بالقنابل، سوف يكون بإمكاننا إزالة دولة الأردن، وبعد ذلك سوف تسقط سوريا، وإذا اجترأت مصر على محاربتنا فسوف نقصف بورسعيد والإسكندرية والقاهرة، وهكذا ننهى الحرب ونقضى قضاءً مبرمًا على مصر، وآشور كلدانيا بالنيابة عن أسلافنا».

ومن الواضح أن النبى الصهيونى الدجال قد اكتسحته رؤاه الشاملة الحلوة وأسكرته، فلبنان لم تقم فيها دولة مسيحية أو إسلامية وإنما دولة عربية، وهذه الدولة العربية هى إحدى مراكز المقاومة والنضال العربى، وحيث إن هذه الدولة «العربية العميلة» التى كان يحلم بها الزعيم الصهيونى لم تقم فهو بالتالى لم يوقع معها معاهدة، بل طردت إسرائيل منها بعد أن قامت المقاومة اللبنانية، بمسلميها ومسيحييها، بالتصدى لها وإحداث نزيف مستمر لها. أما ضرب عمّان بالقنابل (بهدف تحطيم إرادة إمارة شرق الأردن) فمسار التاريخ كان من العناد بحيث لم يتحقق، وسوريا لاتزال شامخة أبية، ومصر العربية الفتاة العجوز قد تحملت ضربات القنابل إلى أن انتفضت فى أكتوبر ١٩٧٣ وردت الغاصب على عقبيه. ونسى النبى الصهيونى فيما نسى تلك الصخرة الصامدة فلسطين ذاتها وأصحابها من الفلسطينيين. ولكن أنّى للنبى أن يتنبأ بهذا وهو المشغول بمصر الفرعونية وآشور وكلدانيا يحارب جيوشها ويهزمها فى أحلامه الصهيونية الجيتوية الشرسة؟

وقد تنبأ الصهاينة بأنهم يمكنهم شراء فلسطين. فقد قدَّر هرتزل ثمنها بمليونى جنيه فقط لا غير! . وكان الزعيم الصهيونى موشيه ليلينبلوم يرى أنه يمكن حل المسألة اليهودية عن طريق شراء فلسطين وأنه «لا توجد قوة أوربية تفكر فى منع اليهود من شراء أرض أجدادهم مرة أخرى. وكان يوقن تمامًا أن تركيا سترد لهم وطنهم نظير حفنة من الذهب. وهى نبوءة لم تتحقق، فالقوى الأوربية لم تمنعه حقًا من «شراء» فلسطين، ولكن الدولة العثمانية رفضت، كما أن انتفاضات الفلسطينيين المستمرة أثبتت أن فلسطين ليست للبيع أو الإيجار! وتصور ليلينبلوم لفكرة شراء الوطن ليست مغايرة لفكرة المفكر الصهيونى «الاشتراكى» موسى هس الذى قال: «على رجالنا الأغنياء أن يبدءوا بشراء العقارات فى تلك الأرض، ولو ببعض ما يملكون من ثروة، وما دام هؤلاء لا يرغبون فى ترك أراضيهم التى يسكنونها الآن، فليشتر كل منهم قطعة أرض فى أرض إسرائيل ببعض من مالهم حيث تُعطى هذه الأراضى لمن يستغلها على أساس اتفاقية بشأن العائد (أو الربح) مع الشارى». ويرى مفكر صهيونى آخر، ليو بنسكر، أن حل المسألة اليهودية يتلخص فى تأسيس شركة مساهمة لشراء قطعة أرض تتسع لعدة ملايين من اليهود يسكنون فيها مع مرور الزمن.

وقد حاول الصهاينة الاستيلاء على حائط المبكى أيضًا عن طريق الشراء فى بادئ الأمر، ومن تلك المحاولات محاولة الحاخام عبد الله (حاخام الهند) شراء الحائط عام ١٨٥٠. وفى عام ١٨٨٧، حاول البارون دى روتشيلد شراء الحى المجاور للحائط لإخلائه من السكان واقترح أن تشترى إدارة الوقف أرضًا أخرى بالأموال التى ستحصل عليها، وتوطن السكان فيها، وهو حل يحمل كل ملامح الحلول الصهيونية (الترانسفير)، وقد رُفض طلبه كذلك. وقبل الحرب العالمية الأولى، قام البنك الأنجلو فلسطينى بمحاولات «جادة» لشراء الحائط كما قام الصهاينة بمحاولات للاستيلاء

عليه، أو التسلل إلى منطقة هضبة الحرم عن طريق تقديم رشاوى، أولاً للحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين حيث عرضوا عليه نصف مليون جنيه استرلينى، ثم عُرض على الشيخ سعيد العلمى مبلغ مليون دولار، ولكن النبوءة الصهيونية العقارية - كما نعرف جميعًا - لم تتحقق.

كما أن هناك نبوءات صهيونية أخرى أقل شمولاً واتساعًا، فقد تنبأ بعض الخبراء الصهاينة أن يهود الأرجنتين الذين يبلغ عددهم حوالى ٣٠٠ ألف (وبالتالى هم أكبر تجمُّع يهودى فى أمريكا اللاتينية) سيهاجرون إلى إسرائيل. وأمريكا اللاتينية تُعتبر إحدى مناطق النزوح، أى إنها بلد طاردة لليهود وليست جاذبة لهم. وهذا يعود لعدة أسباب من بينها رفض الحضارة اللاتينية لليهود ومقدرتها فى الوقت نفسه على هضمهم، ومن بينها أيضًا تقاليد معاداة اليهود الراسخة، وعدم الاستقرار السياسى أو الاقتصادى لبلاد القارة. وقد جاء انتخاب منعم رئيسًا للأرجنتين، بخلفيته الإثنية العربية، فزاد من مخاوف اليهود فيها، وبخاصة أن منافسه ألفونسين كان متعاطفًا مع أعضاء الجماعة. لكل هذا أطلق الصهاينة النبوءات بأن «هجرة جماعية» ستبدأ لا محالة من الأرجنتين إلى إسرائيل.

ولكن الذى حدث بالفعل خيَّب أمل الصهاينة إذ لم يهاجر سوى بضع مئات، عادوا بعدها إلى بلادهم، وتوجه بعضهم إلى الولايات المتحدة، البلد الذى يشكل نقطة الجذب الأساسية بالنسبة للغالبية الساحقة من يهود العالم، وصرح دوف شيكلانسكى، المتحدث باسم الكنيست وأحد زعماء الليكود أن يهود الأرجنتين لم يستمعوا إلى نصائحه (نبوءاته) الصهيونية (ميامى جويش تلغراف ٣ أغسطس ١٩٨٩).

وفى عام ١٩٨٢ صرح متيتياهو دروبلس (رئيس قسم الاستيطان السابق فى الوكالة اليهودية) بأن عدد المستوطنين الصهاينة فى الضفة الغربية

سيصل إلى ١٠٠ ألف عام ١٩٨٧ وأنه بحلول عام ٢٠١٠ ستضم الضفة الغربية ١,٢٥٠,٠٠٠ يهودى! ونُشرت النبوءات بحذافيرها فى كثير من الصحف العربية، وزينت المعلومة صفحاتها وعناوينها الرئيسية. ولكن بحلول عام ١٩٨٧ لم يكن عدد المستوطنين قد تجاوز ٥٠ - ٦٠ ألفًا، أى إن نبوءة دروبلس أو مخططه فشل تمامًا! ومع هذا صرح هذا المسئول الصهيونى نفسه فى ذلك العام (١٩٨٧) بأن هناك خطة مدروسة لزيادة عدد المستوطنين اليهود فى الضفة الغربية وغزة لتبلغ نسبتهم ٤٠٪ من مجموع عدد السكان العرب فى نهاية القرن الحالى، أى ٦٠٠ ألف مستوطن، ثم أشار إلى أن هذه الخطة تفترض هجرة مليون ونصف مليون يهودى من الاتحاد السوفيتى.

وقد نُشرت النبوءة بحذافيرها مرةً أخرى فى كثير من الصحف العربية، كما زينت المعلومة الجديدة صفحاتها وعناوينها الرئيسية، ولكن لم يكلف أحد خاطره بأن يذكر كذبة دروبلس السابقة حتى نتحفظ تجاه تصريحاته (نبوءاته) الجديدة، ولم يطرح أحد احتمال أنه قد يكون مثل سائر البشر يخلط الحقائق بالأمانى والحقيقة بالوهم، وأنه قد لا يختلف كثيرًا عن المخابرات الإسرائيلية التى استمرت فى إنكار وجود الانتفاضة بعد شهر من اندلاعها، والتى أعلنت أنه تم إخمادها بشكل نهائى - عشر مرات قبل أن يتحققوا أنها ظاهرة مستمرة.

الدياسبورا الإلكترونية

يمكننا أن نستمر فى تعداد النبوءات التى لم تتحقق. ولنبدأ بذكر بعض نقط الفشل التى ارتكبتها المخابرات الإسرائيلية.

١ - ظهور أول فشل للمخابرات الإسرائيلية فى فضيحة لافون حينما اكتشف المصريون شبكة التجسس التى كانت تحاول تخريب العلاقات بين

مصر والولايات المتحدة، وقد تلمَّص بن جوريون من المسئولية وألصقها بلافون.

٢ - فشل المخابرات الإسرائيلية فى معرفة أى شىء عن صفقة الأسلحة التشيكية مع مصر قبل وقوعها.

٣ - اكتشاف الدور التخريبى الذى كانت تقوم به المخابرات الإسرائيلية ضد العلماء الألمان بإرسالها المظروفات المتفجرة. فقد قبضت الشرطة السويسرية فى عام ١٩٦٣ على يوسف بنجال من المخابرات الإسرائيلية والمهندس النمساوى أوتوجوليك بتهمة الضغط على ابنة أحد العلماء الألمان لتحمل والدها على ترك العمل فى مصر، كما اكتشفت أن المخابرات الإسرائيلية هى المسئولة عن اختطاف الدكتور هانز كروج والمهندس دولفجانج بيلز واختفائهما، وكذلك محاولة اغتيال الدكتور والتركلين، وكلهم من العلماء الألمان. وكعادته حاول بن جوريون التلمُّص فألصق التهمة بايسير هارئيل رئيس الشين بيت (الشاباك)، مع أنه من المعروف أن هارئيل ما كان ليتصرف على هذا النحو دون أوامر من بن جوريون، وقد استقال هارئيل احتجاجًا على مسلك بن جوريون وإن كان لم يحاول إظهار حقيقة الأمر كما فعل لافون.

٤ - فوجئت الاستخبارات أيضًا بعملية مطار اللد التى اشترك فيها يابانيون على الرغم من توفر معلومات عن وجود أجانب بين الفدائيين، وعن علاقات المنظمات الفلسطينية بمنظمات عسكرية من دول مختلفة.

٥ - اكتشاف تورُّط المخابرات الإسرائيلية فى حادثة اغتيال بوشيقى مما سبَّب الحرج للحكومة الإسرائيلية فى أوربا. وقد تكرر الأمر بعد ذلك، ولعل آخرها محاولة اغتيال خالد مشعل.

٦ - فشلت المخابرات الإسرائيلية فى مكافحة اختطاف الطائرات وفى حماية بعض عملائها فى الخارج.

٧ - ولكن الخطأ الأكبر هو خطأ حرب عيد يوم الغفران، حينما فوجئت إسرائيل بالعبور العربى المصرى السورى العظيم، وقد عدَّد زئيف شيف المعلّق العسكرى الإسرائيلى مواطن الخطأ والقصور فى عدة نقاط نورد منها ما يلى:

(أ) توهمت إسرائيل أن العرب غير قادرين على الحرب وقد هدَّدت إسرائيل بأنه لو بدأ العرب بحرب محدودة فستقوم إسرائيل بحرب شاملة، وما لم تتصوره إسرائيل هو أن العرب قد يشنون هم أنفسهم حربًا شاملة.

(ب) لم تتمكن إسرائيل من التنبؤ، بالحرب البترولية الشاملة.

(جـ) لم تتصور إسرائيل أنها ستحتاج لمساعدات ضخمة من الولايات المتحدة منذ اليوم الثالث للحرب.

(د) تصوُّر أن القوات الإسرائيلية ستحقق انتصارًا ساحقًا ماحقًا على القوات العربية فى أول يوم.

(هـ) لم تقدِّر المخابرات الإسرائيلية قُدرة المصريين على تنفيذ عملية عبور ناجحة ونقل عدة فرق مشاة وبعدها فرق مدرعة إلى ما وراء القناة، خلال ساعات معدودة، كما لم تقدِّر بصورة سليمة، كفاءة سلاح المهندسين المصرى والأسلحة المساعدة الأخرى.

(و) لم تقدِّر المخابرات الإسرائيلية المقدرة القتالية لسلاح المشاة المصرى تقديرًا صحيحًا خصوصًا قدرته على مواجهة المدرعات التى تهاجمه، كما أنها لم تعرف شيئًا عن إقامة وحدات من صائدى الدبابات فى الجيش المصرى.

(ز) لم تعرف المخابرات الإسرائيلية بكميات الأسلحة المضادة للدبابات التى وزّعت على وحدات المشاة، كما لم تقدّر كما يجب، تأثير كميات الأسلحة هذه فى أساليب القتال وطابعه.

٨ - استمر الفشل الاستخبارى الإسرائيلى على عدة مستويات من أهمها فشل المخابرات الإسرائيلية فى تقدير حجم المقاومة اللبنانية للغزو الإسرائيلى للبنان، ثم المحاولة الصهيونية للتخندق فيما سموه «الحزام الأمنى».

٩- فشلت المخابرات الإسرائيلية فى التنبوء بانتفاضة ١٩٨٧ واستمرت فى تسميتها اضطرابات لمدة عدة شهور.

١٠ - وأخيرًا توهمت المخابرات الإسرائيلية أن ما يسمّى «عملية السلام» سيُخدّر الفلسطينيين والشعب العربى، وفوجئت باندلاع انتفاضة الأقصى، وبحجم التأييد الشعبى لها.

ولكن الفشل الصهيونى فى التنبؤ، لا ينطبق على المخابرات الإسرائيلية ولا على الأحداث المتفرقة وحسب، وإنما يمتد ليشمل الرؤية الإستراتيجية.

١ - تنبأ هرتزل، على سبيل المثال، بأن دولته اليهودية ستمتد من النيل إلى الفرات أو كما قال: «شعارنا هو فلسطين داوود وسليمان». وقد أكد له صديقه ماكس بودنهايمر أن المساحة التى يطلبها الصهاينة هى «من وادى النيل إلى الفرات». ولفترة من الزمن كان هذا هو الهدف الصهيونى، ولكن تدريجيًا تقلّص هذا الوهم، خاصةً مع اكتشاف الصهاينة أن احتلال أرض عربية تتسم بالكثافة السكانية ليس أمرًا هينًا، وأنه يحتاج إلى قوة احتلال عسكرية نظامية كبيرة لا يمكن لإسرائيل أن تحتفظ بها، خاصةً مع تصاعُد المقاومة العربية المستمر. ولذا انكمش الحلم الصهيونى وبدءوا

يتحدثون عن الأمن الصهيونى الذى يمتد من النهر (نهر الأردن) إلى البحر (البحر الأبيض المتوسط)، وبدأ الحديث عن إسرائيل الكبرى اقتصاديًا بدلاً من إسرائيل العظمى جغرافيًا!

٢ - ويمكننا الحديث عن نبوءة تحقق نصفها وحسب، فحينما حضر هرتزل إلى مصر استمع إلى محاضرة عن الرى واسترعى انتباهه وجود عدد كبير من المصريين الذين بدت عليهم سمات الذكاء. فدوَّن هرتزل فى مذكراته أن هؤلاء المصريين هم قادة المنطقة ثم أضاف: «ومن الغريب أن الإنجليز لا يرون هذا ويظنون أنهم سيظلون يتعاملون مع فلاحين إلى الأبد. يكفى الإنجليز ٨٠٠٠ جندى لحكم هذه البلاد الكبيرة، ولكن إلى متى يا ترى؟» وتساؤل هرتزل هذا ينم عن فطنة وذكاء، ولكن السؤال الذى يطرح نفسه: لِمَ لَمْ تجعله ملاحظاته يعدل عن أطماعه فى شبه جزيرة سيناء؟ ولِمَ لَمْ يعمِّم من ملاحظاته عن الإنجليز ما قد ينتفع به كمستعمِر صهيونى؟ إن نصف نبوءة هرتزل بخصوص المنطقة قد تحقق، ولكن النصف الثانى، الخاص بالاستيلاء على أجزاء من مصر لتأسيس الدولة اليهودية، لم يتحقق.

٣ - تنبأ الصهاينة بأن الحركة الصهيونية ستقوم بجمع شمل المشتَّتين اليهود. ولكن هذا الهدف لم يتحقق من قريب أو بعيد. فإسرائيل لا تزال دولة أقلية نظرًا لأن يهود العالم - خاصةً يهود أمريكا المندمجين - يرفضون تنفيذ النبوءة الصهيونية بالهجرة إلى أرض الميعاد، مكتفين بالتشوق الدائم لها، ولا يزال مركز الدينامية بالنسبة لهم هو دولهم التى يعيشون فيها، وليس الدولة اليهودية. وقد تكيَّف الصهاينة مع هذا الوضع، ولذا تنازلوا عن شعارات مثل «جمع المنفيين»، ولم تَعُد المنظمة الصهيونية تطلب من يهود العالم الغربى الهجرة إليها، ولم تَعُد تتبع

الأسلوب العقائدى العدوانى الذى كانت تستخدمه مع الماضى معهم. ومن هنا الحديث عن «الصهيونية التكنولوجية» أو «الإلكترونية» أو «صهيونية الدياسبورا» (بدلاً من «نفى الدياسبورا»)، أى إن الحركة الصهيونية قد قبلت بأمر واقع مفاده أن اليهود ليسوا واحدًا وأن إسرائيل ليست وطَنهم الوحيد وأن يهود المنفى لهم حق البقاء فيه على أن يساهموا فى بناء الدولة الصهيونية بأى شكل بما فى ذلك إرسال إسهاماتهم بالبريد الإلكترونى، ومن هنا قبول الصهيونية التوطينية، ومحاولة توظيف يهود «المنفى» فى منفاهم، أى أوطانهم.

□□□

الشعب اليهودى وأوهام أخرى

ثمة نبوءات صهيونية أخرى ذات طابع إستراتيجى مهم لم تتحقق من قريب أو بعيد:

١ - تنبأ الصهاينة أنهم سيؤسسون دولة يهودية توفر حياة سوية للشعب اليهودى، خالية من الهامشية والطفيلية. وأن اليهود سيحققون انعتاقهم بجهودهم الذاتية. وما حدث هو أنه تم تأسيس دولة صهيونية من خلال القوى الإمبريالية، وهى دولة تعيش على المعونات ولا يمكن لها أن تحقق البقاء دون الدعم المالى والسياسى والعسكرى الأمريكى الغربى.

٢ - لا يزال اليهود المنفيون يعانون مما يسميه الصهاينة ومعادو السامية «ازدواج الولاء الحضارى والسياسى». وقد عمَّق إنشاء دولة إسرائيل هذا الازدواج، لأن ولاءات اليهود الآن موزَّعة بين دولتين قد ينشأ بينهما تناقض فى المصالح والقيم (كما كان الحال بالنسبة لليهود السوفيت، ويهود الكتلة الشرقية عامة).

٣ - والدولة اليهودية التى شيَّدها الصهاينة ليست هى المدينة الفاضلة التى تحدَّث عنها المفكرون الصهاينة بل إنها أبعد ما تكون عن أن تكون دولة «أمة الروح» التى تقدِّم لأمم الأرض مثلاً يُحتذى، إنها فى واقع الأمر ثكنات عسكرية ضخمة منظمة تنظيمًا عسكريًا رهيبًا لم يعرف مثله التاريخ الحديث حتى ولا فى ألمانيا النازية. وفى الآونة الأخيرة أصبحت بؤرة من البؤر الاستهلاكية، يدور أحلام سكانها حول الثلاثة V: الفيديو والفولفو والفيلا (حسبما جاء في الصحف الإسرائيلية).

٤ - ادعى الصهاينة أن المجتمع الصهيونى (اليهودى) سيكون مختلفًا عن المجتمعات الأخرى، بسبب شخصية اليهود الفريدة. ولكن المجتمع الإسرائيلى يواجه معظم المشاكل التى يواجهها أى مجتمع صناعى حديث، وبذا تبخَّرت فكرة الشعب المختار الفريد بعد مواجهة قصيرة مع الواقع العملى. لقد أثبت الواقع أن مزاعم الصهاينة هى نتاج رؤيتهم الأسطورية، وأنها لا علاقة لها بأبعاد ما يسمونه الشخصية اليهودية. ويلاحظ كثير من المفكرين أن الدولة اليهودية لم تنجح حتى الآن فى إنتاج مفكر يهودى واحد له ثِقَل كبير (مع العِلم بأنه لا يمكننا أن نَعد مارتن بوبر إسرائيليًا، فثقافته ألمانية)، ولهذا لا يزال يهود العالم منفصلين روحيًا عنها تمام الانفصال. بل ويفضِّل كثير من الباحثين الآن أن يميِّزوا بين اليهود (خارج فلسطين المحتلة) والإسرائيليين (وخاصةً الصابرا)، باعتبار أن الحضارة الإسرائيلية الحديثة نتاج ظروف مختلفة عن الظروف التى شكَّلت أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم.

٥ - تدَّعى الصهيونية أنها حركة «إنقاذ» لليهود من الاضطهاد والمخاطر التى تحيق بهم فى بلدان العالم المختلفة، وأنها ستحقِّق لهم الأمن. ولكن ظهر أنه بعد تأسيس إسرائيل زادت الهجمات على أعضاء الجماعات اليهودية، كما أن أعضاء التجمُّع الصهيونى ذاته تسيطر عليهم عقلية

الأقلية الفزعة: من تطرُّف وخوف دائم وتمجيد زائد لكل ما يتصل بهم وبتراثهم. ولعل رفض يهود العالم التصرُّف حسب النبوءة الصهيونية هو الذى تسبَّب فى الأزمة الاستيطانية، أى حاجة المستوطن الصهيونى إلى مادة بشرية قتالية ليقوم بوظيفته، وفشله المستمر فى الحصول عليها.

٦ - تنبأ الرواد الصهاينة بأنه سيتم تطبيع اليهود بحيث يصبحون شعبًا واحدًا متحدًا مثل كل الشعوب. ولكن أثبتت الأيام أن التجمُّع الصهيونى قد فشل فى إنجاز ما يسميه الصهاينة «ميزوج جاليوت» أى «مزج يهود المنفى» وما حدث هو أنه وصلت جماعات يهودية مختلفة ظلت محتفظة بعقائدها الدينية وعادتها الشعبية. ولذا لا يمكن القول بأن إسرائيل تضم شعبًا إسرائيليًا، وإنما تضم تجمُّعات إثنية ودينية مختلفة. فيهود الفلاشاه الذين يتحدثون الأمهرية وينتمون إلى الحضارة الإفريقية يختلفون بشكل جوهرى عن المهاجرين اليهود من الولايات المتحدة، وكلا الفريقين يختلفان عن المستوطنين المرتزقة الوافدين من الاتحاد السوفيتى، الذين يضمون عددًا كبيرًا من اليهود غير اليهود (أى اليهود الذين فَقدوا هويتهم الدينية والإثنية) بل ومن الأغيار من غير اليهود. وإلى جانب كل هؤلاء يوجد الكتلة البشرية الوافدة من المغرب، والتى تشعر بكيانها المستقل كمًا وكيفًا وتحاول أن يُسمع صوتها داخل النظام السياسى الإسرائيلى، بل ويُقال: إنها، بسبب يهوديتها الواضحة، تفكر جديًا فى قيادته لتحل محل القيادة العمالية العلمانية المتهالكة. ولم يفشل الصهاينة فى مزج المنفيين وحسب، ولا فى تخليق شعب واحد، بل فشلوا تمامًا فى تعريف اليهودى.

٧ - تنبأ الصهاينة بأن الدولة الصهيونية ستكون بمنزلة مركز روحى يمنع يهود العالم من الاندماج فى مجتمعاتهم، وبالتالى يحافظ على

هويتهم. ولكن الشباب من أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم الغربى يتجه نحو الحضارة السائدة، وهى حضارة لا تساعدهم البتة مثل تطوير جوهرهم اليهودى المزعوم لأنها حضارة عملية علمانية. كما أن أعدادًا كبيرة من الشباب اليهودى المتمرد ينخرط فى سلك الحركات اليسارية، وهى حركات دولية معادية للمفاهيم الصهيونية الضيقة، خاصةً وأن الصهيونية الآن غير قادرة على أن تبرز واجهة يسارية (كما كانت تفعل فى الماضى)، ولذا فهى تقدِّم إسرائيل باعتبارها بلد المشاريع الرأسمالية الخاصة. ولهذا يكون قد فشل الصهاينة أيضًا فى تحرير اليهود من «منفى الروح»، ولم تنجح الصهيونية فى منع الشباب اليهودى من الانضمام للحركات الاشتراكية اليسارية (كما كانت تزعم).

٨ - بل يلاحظ داخل المستوطن الإسرائيلى أن نموذج الصابرا الجديد (أى الشباب الإسرائيلى الذى وُلد على أرض فلسطين المحتلة) يُكِنُّ الاحتقارَ الشديد لنموج يهودى الدياسبورا (أى يهود العالم خارج فلسطين) الذى تتسم حياته بالسلبية وبالتقبُّل لحكم الجوييم (الأغيار). وقد ظهر هذا الاحتقار بصورة خاصة أثناء محاكمات إيخمان فى تل أبيب حيث تبيَّن للجيل الجديد الإسرائيلى كيف أن اليهود ذُبحوا ذبح الشاة دون مقاومة أو كفاح. وبينما يتهم الصهاينة يهود المنفى بأنهم لا يشتغلون إلا بالأمور الكتابية والفكرية، نجد أن الصابرا معادٍ للعقل (أى إنه صهيونى حتى النخاع)، كما أنه معادٍ للفكر الإنسانى عامة، وهو فى هذا نتاج حقيقى للفكر الصهيونى أيضًا، خاصةً الصهيونية السياسية العملية، التى تعادى الأخلاق والفكر والتنظير، مفضلةً اللجوء إلى الفعل، والفعل السريع الذى لا يكترث بالتراث، كما أنه جيل تُسيطر عليه الثقافة الشعبية ذات الصبغة الأمريكية. ولذا تنتشر فى إسرائيل أفلام رعاة البقر وأفلام الجريمة والإثارة الجنسية.

٩ - ولكن من أهم أوجه فشل الصهاينة في التنبؤ هو سقوط الأيديولوجية الصهيونية ذاتها كإطار يُدرك المستوطنون الواقع من خلاله، وكرؤية توجِّه سلوكهم وتحدِّد أولياتهم. فلم يعد يهود العالم يرون أن الصهيونية أيديولوجية لها أى مغزى بالنسبة لحياتهم فى أوطانهم، ولم يعد المستوطنون يجدون أن لها علاقة بواقعهم، حتى أصبحت كلمة «تسيونوت» تعنى «كلامًا لا معنى له». وهذا الجانب من الفشل الصهيونى من الأهمية بمكان، حتى إننا سنفرد له مقالاً مستقلاً.

ويمكن أن نستمر فى ذكر أوجه الفشل الصهيونى فى التنبؤ، ولكن مثل هذا الأمر قد يبعث على الملل، خاصةً بعد أن ذكرنا عشرات النبوءات الفاشلة. ويكفى هنا أن نشير إلى أن نبوءة هرتزل بخصوص إنشاء الدولة الصهيونية خلال خمسين عامًا، لم تكن مخططًا صهيونيًا رهيبًا، يقوم على تنفيذه مجموعة من البشر يتحكمون فى مقدرات العالم، فهى كانت، كما نقول بالعربية «رمية من غير رام». والسياق الذى وردت فيه النبوءة يدل على أنها كانت عبارة بلاغية تعبِّر عن النشوة. إن دعاة الهزيمة يبحثون فى الواقع عن شواهد تدل على قوة الصهاينة ومدى سيطرتهم على العالم، وبالتالى عبث التصدى لهم. و «نبوءة» هرتزل أعطتهم ذخيرة وفيرة. ولكنهم انتزعوا العبارة من سياقها، وأضفوا عليها هالة عجائبية، واستخدموها كعصى لضرب المقاومة وتطويعها. ولعلنا بحصر كل هذه النبوءات الفاشلة نبيِّن مدى هامشية نبوءة هرتزل وعدم دلالتها.